وعارضهُ الثعالبي مؤلف الكتاب فقال (ص٧٥):

وليـل بتُّ رهنَ اكتئابٍ افاسي فيهِ ألوان العذابِ
اذا شرب البعوض دمي وغنّى فللبرغوث رقصٌ في ثيابي

ونختم هذا بوصف طبيب فصّاد لكشاجم اجاد فيهِ كما شاء (ص١٦٠):

المجد قد وجدتُ اخاً لستُ بذا الدهر مثلهُ واجدْ
اسكنُ في حيّهِ اليهِ فان مرضتُ كان الطبيبَ والعائدْ
احنى على كلّ من يعالجهُ من الشفيقِ والوالدْ
يعلمُ من قبل ان تخاطبهُ ما انت من كلّ علّةٍ واجدْ
كأنما تحت ما يجسّ بهِ قلبٌ دليل وناظرٌ رائدْ
كأنما طرفُهُ لبضعهِ متّصل في طريقهِ القاصدْ
كأنهُ في نصيحةٍ ونقيّ لنفسهِ دون غيرهِ قاصدْ
يُبقي علينا دم الحياة ولا يُخرج الّا المضرَّ والفاسدْ
يُخرج مقدارَ ما تريد على المزاج لا ناقصاً ولا زائدْ
مبارك الشخص حين تبصرهُ توقن بالبرء انهُ وارد

فهذه المنتخبات شاهد بيّن على ما اسلفنا من مديح هذا الكتاب وحُسن مضامينهِ . والسلام

اثر جديد لمار افرام السرياني

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

هو عمود اليمة وشمس المشارق . بل نبيُّ السريان وصدّاحة الروح القدس افرام النصيبينيّ الذي لم يتّسم بهذه الاسماء الشريفة كالقاب فارغة لكنّهُ استحقّها بحصر القول فضاق المنطق عن احصاء مناقبهِ وتعداد مبرّاتهِ . وكفاهُ فخراً ان تآليفهُ عُدّت في كنائس الشرق بمثابة الاسفار المنزلة فكانت تُتلى في الحفلات الدينيّة كما افاد القديس ايرونيموس . فلا بدع ان يتزاحم العلماء على مناهل ذلك الرجل العظيم فيستقون من ينابيعهِ ويتناقلون اقوالهُ بل يلتقطون شذرات كلامهِ كما يلتقط الجياع الفتات المتناثر من القصاع . فما قولك بهم ان جاءهم احد باثر جليل كان اخفى عليهِ الزمان او تلاعبت بهِ ايدي العيث فطمست محاسنهُ طوارق الحدثان . وها نحن نبشر

محبّي الدرر الافراميّة بظهور احد مصنّفاتهِ التي أيس البعض من التمتّع بفوائدها وذلك بهمّة احد جهابذة الشرقيين غبطة السيد الجليل والعلّامة النبيل بطريرك طائفة انطاكية على السريان الكاثوليك مار اغناطيوس افرام الثاني الرحماني الذي أولع بآداب السريان فاحيا منهـا بعد موتها ما خلّد لهُ شكر العلماء . لكنّهُ أغرم بآثار سلفهِ وشغيفهِ وابن اوطانهِ الجزيريّة لينشر منها ما لم يزل في طيّ النسيان . ونعم ما فعل اذ تفوق اعمال القديس افرام على مآثر سواه بقدمها وسموّ مضامينها وحسن سبكها

ترين معانيهـا الفاظها والفاظها زانتاتُ المعاني

وممّا اتحفنا بهِ آخرًا مجموع خطير يبلغ ١٣٦ صفحة مطبوع احسن طبع في مدرسة السيدة في الشرفة بحرفنـا الاسطرنجلي الذي سبكناهُ في مطبعتنا الكاثوليكية على مثال بديع من مخطوطات مكتبة باريس واضاف اليهِ مقدّمات وشروحاً مع ترجمة لاتينيّة مستوفية وانيقة العبارة وفوائد أخرى زادت تلك الطرفة قدرًا وحسنًا فنحض لنبطتهِ التهانئ متمنين لهُ طول البقاء ليواصل اعمالهُ الممتازة خدمةً للكنيسة ورفعًا لمنار اللغة السريانيّة

*

وقبل ان نخصّ بالنظر هذا الاثر الجديد ونعرّف القرّاء بمكنوناتهِ يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن مؤلفات القديس افرام فنقول : انّ ملفان الكنيسة السريانيّة احد رجال القلم الذين توسّعوا في الكتابة حتّى يختار العقـل لغزارة مادّتهم ووفرة تعابيرهم فهو بين السريان كاوريجانس ويوحنّا فم الذهب بين اليونان وكترتليان واوغسطينوس بين اللاتين اقامهُ الله في الخاء ما بين النهرين ليتصدّى لشيع الهراطقة المتعدّدة في تلك الاصقـاع ويرشد الضالّين ويثبّت المؤمنين في سبيل الحقّ فلم يدع باباً في الانشاء الّا طرقهُ او منهجاً دينيًّا الّا سلكهُ . لهُ شروح على اكثر الاسفار المقدّسة ومدائح وميامر ومداريش واقوال جدليّة منهـا بالنثر واكثرها بالشعر وفي شعرهِ من الرقّة والطلاوة والاتّساع في المعاني المبتكرة والتشابيه البديعة ما يأخذ بمجامع القلوب . واثنى عليهـا كثير من اهل الانتقاد والذوق كالقديس باسيليوس وفوطيوس . وقد عدّد البعض القصائد التي الّفهـا القديس افرام واذا هي تزيد على ١٢٠٠ قصيدة بينها المنظومات الطويلة

ثمّ توالت القرون على هذه الآثار فكادت تذهب فريسة الضياع والنسيان لولا

دخول قسم كبير منهـا في طقوس الكنائس الشرقيَّة من كلدان وسريان وموارنة ترى فرائضهم الدينيَّة وصلواتهم الملِّيَّة مشحونة باقوال القديس افرام يتغنَّون بهـا في كلّ اطراف الليل وآناء النهار وخصوصاً في مواسم الاعيـاد لا يملكهم في ترددها سأم لحسن معانيها وانسجام تعابيرها

ولمَّا حصلت في اوربَّة في القرن السادس عشر نهضة الآداب الشرقيَّة اقبل كثيرون على درس اعمال القديس افرام وطبعوها كما وجدوها في خزائن كتبهم منقولـةً الى اليونانيَّة والى اللاتينيَّة . وفي مطاوي ذلك العصر وفي الجيل التالي تنبَّه الاحبار الرومانيُّون كلارن العاشر وسكستوس الرابع وبيوس الرابع وبولس الخامس واوربانوس الثامن الى الكنوز الاديَّة الشرقيَّة وسعوا في اغناء مكتبة الفاتيكان بتآليف السريان والكلدان والعرب والعجزانيين والفرس والحبش والاقباط والارمن فانفقوا عليها المبالغ الطائلة . وقد زادت في ذلك مساعيهم وتضاعفت همهم منـذ أُنشئت في رومية العظمى المطابع الشرقيَّة فنالت بذلك فضل السبق على بقيَّة الدول . ولمَّا صار زمام الكنيسة في ايدي الطيِّب الذكر اقليمس الحادي عشر افرغ كفاية وسعه في الحصول على المخطوطات الشرقيَّة فاستعان على الامر بهمَّة المرسلين واوفد الى مصر والصعيد وانحاء الشام من يجمع تلك الآثار وقد اشتهر في ذلك بعض تلامذة المدرسة المارونيَّة في عاصمة الكثلكة كابراهيم الحاقلاني والياس نسيب السمعاني واندراوس اسكندر وعلى الاخصّ المنسيور يوسف شمعون السمعاني فلم تلبث الخزانة الفاتيكانيَّة ان تردان باجمل المؤلفات التي خلفهـا مشاهير الكتبة الشرقيين . وكان لنبيّ السريان بين هذه الآثار عدَّة تآليف يرتقي بعضها الى الف سنة بنيف

واوَّل من سعى بنشر اعمال القديس افرام في لغتـه الاصليَّة الاب بطرس مبارك اليسوعيّ الماروني طبع منها في النصف الاوَّل من القرن الثامن عشر مجلدين ضخمين ونصف مجلَّد ونقل ذلك الى اللاتينيَّة ولمَّا توفَّاهُ الله في اثنـاء العمل اكمل هذا الجلد الثالث مطران افامية الشهير اسطفان عوَّاد السمعاني . وكان المنسيور يوسف السمعاني ناظر المكتبة الفاتيكانيَّة يُعنى في اثنـاء ذلك بطبع ما تيسَّرَ من اعمال ملفان السريان باليونانيَّة في ثلاثة مجلَّدات على حجم المجلَّدات السريانيَّة ناقلاً اياها الى اللاتينيَّـة

وبقيت هذه المنشورات كدستور يرجع اليه العلماء الى اواسط القرن التاسع عشر حيث قام مستشرقون فضلاء وتجاروا في استخراج اعمال القديس افرام من قاطيرهـا المجهولة لاسيّما في خزانة لندن وباريس فنشر اوفربك كثيرًا من ميامره وردوده على البدع وعلى يليان الجاحد وغير ذلك وابرز بيكل احد اساتذة ڤينّة مداريشهُ النصيبينيّة التي ضمّنها القديس امورًا من تاريخ نصيبين وطنهِ واحوالها وجيرتهـا. وطبع لامي في بلجيكة مجلّدين آخرين من نخبة اعمالهِ التي لم تُنشر بعد للطبع فيها اليامر على الاعياد الكنسيّة والمداريش والقصائد الرنّانة فيها المئات من الابيات كقصّة يوسف بن يعقوب ووصيّة القديس افرام. وكذلك تستكرله (Zingerle) وحضرة وطنيّنا الاب بدجان الكلداني اللازري نشرا للقديس افرام عدّة قصائد لم تُطبع حتّى الآن

دعنا الان نسرّح الابصار في الاثر الجديد الذي نشرهُ بالطبع غبطة السيد الجليل مار اغناطيوس افرام الثاني السرياني فنقول : انّ بين المخطوطات التي كان حصل عليها الياس نسيب السمعاني سنة ١٧٠٧ في دير الاسقيط كتابًا نقيًا خطّهُ على الرقّ كاتبٌ يُدعى قزما سنة ٨٣٤ للاسكندر الموافقة سنة ٥٢٣ للميلاد وهو الكتاب السابع من مقتنيات الياس المذكور ثمّ وُسم بالعدد ١١١ ويحتوي على ٢٦٠ ميمرًا من ميامر القديس افرام تُقسم الى خمسة اقسام : ٥٢ منها في الكنيسة وتعليمها الصادق. ثمّ ٥٠ في البتوليّة. ثم ٨٧ في الايمان القويم. ثم ٥٦ في تفنيد البدع. ثمّ ١٥ في الفردوس. وهذا المجموع فريد في جنسهِ ليس منهُ نسخة اخرى كاملة مثلهُ ولكن لسوء الحظّ قد أُصيب هذا الكتاب بآفةٍ كادت تتلفهُ وذلك انّ المخطوطات التي اتى بها الياس السابق الذكر كانت وقعت في مياه النيل وما استُخرجت منها الّا بعد ان طُمس منها قسم كبير. فلمّا اقبل العلماء على نشر مخطوطات القديس افرام لم ينشروا من هذا الكتاب الّا ما تيسّر لهم مقابلتهُ مع غيرهِ واصلاحهُ بالمعارضة

وبين اقسام المخطوط المنوّه بهِ قسمٌ لم يُعرف منهُ حتى الآن الّا هذه النسخة الفريدة نزيد المداريش الخمسين الموسومة بمداريش البتوليّة من اجلّ منظومات القديس افرام لكنّ كثيرًا من سطورهِ قد فسدت بماء النيل كما ترى في المثال الذي انبتاهُ هنا فعجز العلماء عن قراءتها واحجموا عن طبع الكتاب

بيد ان هذه العوائق ما كانت لتخمد همّة السيد البطريرك فانهُ لم يزل يعمل

نظرهُ في معنيات الكتاب حتى فكَّ كثيرًا من اسراره . ومما اعانهُ على الفوز بالمرغوب كتابان في خزانة مخطوطات لندن موسومان بعدد ١٧١٤١ وعدد ١٤٥٠٦ يحتوي الاوَّل منهما ثلاثة عشر مدراشاً من هذه المداريش اعني المدريش الاولى الاحد عشر ثم المدراشين الرابع عشر والثامن عشر . اما الثاني الراقي عهدهُ الى القرن التاسع ففي ضمنهِ عدَّة قصائد افراميَّة من كتاب البتوليَّة أُدرجت في الفرض الطقسيّ . واستفاد ايضاً غبطتهُ لاصلاح خلل المصحف الثاتيكاني بالصلوات القانونيَّة التي يتلوها السريان أيام الآحاد والاعياد السنويَّة وهي تشمل نبذًا شتَّى منتخبة من هذه مداريش البتوليَّة كما انهُ جزاهُ الله خيرًا استعان بتآليف علماء السريان الاقدمين الذين استشهدوا بطُرَف من هذه القصائد الجميلة . وقد اشار الى كلّ ذلك في الحواشي التي علَّقها على النصّ السرياني

ثمَّ انَّ السيد البطريرك لم يكتفِ بكل ذلك بل احبَّ ان يقتبس الغربيون عموماً والمكلفون بالدروس الشرقيَّة خصوصاً من انوار هذه المداريش فافرز لهم قسماً مطوَّلاً افتتحهُ بمقدِّمة مفيدة بحث فيها عن مبنى الكتاب ومخطوطه الثاتيكاني ثمَّ عن صحَّة نسبتهِ الى القديس افرام ثمَّ عن مضامينهِ ثمَّ عن البحر اوزانهِ . وعقَّب المقدِّمة بترجمة المداريش فنقلها الى اللاتينيَّة بامانةٍ وعبارة فصيحة مما تنبئ باضطلاع الناقل الكريم على دقائق اللغتين سواء . وعلَّق على ترجمتهِ بعض حواشٍ ايضاحاً للتعابير الغريبة او الملتبسة واشار فيها كذلك الى الآيات الكتابيَّة التي قصدها المؤلف القديس في نظمهِ

ومن فضل غبطتهِ ايضاً انهُ الحق بتلك الترجمة نبذةً تتضمَّن الالفاظ اللغوية التي وردت في هذه المداريش ولا اثر لها في المعجمات السريانيَّة ووضع بازائها ترجمتها اللاتينيَّة

فترى من ثمَّ ما امتازت بهِ هذه الطبعة من المحاسن التي لا يشوبها سوى اغلاط خفيفة طبعيَّة في اللاتينيَّة يسهل على العلماء اصلاحها

*

قد بقي علينا ان نذكر شيئاً من خواصّ هذا التأليف الافراميّ ليحيط بفوائدهِ علماً قرَّاؤنا الكرام . وان سألت اوَّلاً كيف تثبت نسبة هذا الكتاب للقديس افرام وما ادرانا انها ليست لغيرهِ من كتبة السريان ولعلَّ بعضهم نسبها اليهِ زورًا

فالجواب على ذلك (اوَّلاً) ان مداريش البتوليَّة في مجموع يحتوي اعمالاً للقديس

افرام لا ريب في صحّتها . فليس من داعٍ للقول بان مداريش البتولية لغيره . (ثانيًا) انّ الناسخ وهو من الربع الاوّل من القرن السادس قد صرّح في ختام نسخته انّ المداريش المنسوخة كلها من اقوال القديس افرام . (ثالثًا) ويثبت ذلك ما ورد من المقاطيع المتفرّقة التي في مخطوطَيْ لندن السابق ذكرهما وهي تُنسب هناك للقديس افرام كما في نسخة الڤاتيكان . (رابعًا) ويزيد الامر ثبوتًا اذا قوبل بين انشاء مداريش البتولية وبقيّة قصائد افرام السرياني فتجدها موافقةً لها في طريقة الكتابة والتعابير وسعة المادّة والتفنن في التشابيه واشكال البديع وتفنيد الهراطقة الذين ناقضوهم في بقيّة تآليفه من برديصانيين ومرقيونيين ومانويين وآريين الخ . (خامسًا) واخيرًا قد صرّح القديس افرام باسمه في ختام مدراشين من هذه المداريش اعني الحادي عشر في الدور العاشر حيث يقول : « انّ اسمي افرام ولكن يكتفي بالي ما ورد في نبوّة هوشع عن هذا الاسم (يريد سبط افرائيم) ». وفي المدراش التاسع عشر افاد ايضًا انهُ وضعها وهو شيخ بالغ في السنّ

ولكن ما سبب تسمية هذه المداريش بالبتولية ؟ ان نسبتها للبتولية ليس لكونها تبحث عن البتولية وانّما دُعيت بهذا الاسم لانّ المداريش الاولى منها مختصّة بمحامد البتولية ومفاخر العفّة والطهارة . وبينها قصائد عديدة في مدح السيّد المسيح وذكر اسرار حياتهِ الالهيّة وقيامته وفيها اقاويل في نينوى وتوبة اهلها على يد يونان النبيّ ومواضيع اخرى كتابيّة ودينيّة كذكر لوط وسليمان النبيّ والكنيسة والايمان وغير ذلك

وهذه المداريش كما سبق من النظم السريانيّ الذي نهج لهُ القديس افرام مناهج خاصّة وليس في العروض السريانيّة كما في العربية قوافٍ. بروي واحد وانّما لها اوزان ذات عدد معلوم من المقاطع تعود بنظام في كلّ دور وللدور شطور يختلف عددها من الشطرين الى ١٤ شطرًا . وكذلك مقاطع الشطور تختلف من الاربعة الى الثمانية . وربّما كانت شطور ادوار القصيدة كلها ذات خمسة او سبعة او ثمانية مقاطع وربّما امتزجت شطور المقاطع المختلفة على قاعدة ثابتة كما بيّن الامر السيّد البطريرك في مقدّمته

ولهذه المداريش فوائد شتّى فانها تُطرب السمع بنظمها ثمّ تفكّه الالباب بمعانيها الشعريّة وتفيد التاريخ في اشياء متعدّدة كبيان احوال السريان في زمن المؤلف في

دينهم وآدابهم وما قام بينهم من المبتدعين. ومن اعظم فوائدها تأييدها للعقائد الدينيَّة الكاثوليكيَّة كعقيدة الخطيئة الاصليَّة وعقيدة براءة البتول منهـا في حبلها الطاهر وعقيدة ابن الله الكلمة المتجسد ذي الاقنوم الالهيّ الواحـد في الطبيعتين وكحقيقة اسرار الكنيسـة من عماد وتثبيت وتوبة وقربان مقدَّس محتو لجسد ودم المسيح وكعقيدة الكنيسة الواحدة ورئاسة بطرس عليهـا وكعقيدة النعمة واتفاقها مع حرّيَّة الانسان وكاكرام الصوَر وشفاعة القديسين الذين يحصلون على السعادة حالًا بعد انتقالهم

وفيها كذلك اشارات شتَّى الى عادات الكنيسة القديمـة كدهن المذبح بالزيت المقدَّس ومسح الموعوظين بالزيت وعمادهم يوم سبت النور ووضع صليب خشب ضمن جرن المعموديَّة وتقبيل القربان الاقدس في القداس والانكفاف عن شرب الخمر ايَّام الصـوم ومسح وجه الميت بالزيت وغير ذلك مما يصوّر احوال المسيحيين الاقدمين تصويرًا لطيفًا حيًّا

وكنَّا نودّ ان نختم هذه النبذة بامثلة نقتطفها من هذا السفر الجليـل لولا ضيق المكان فنكتفي بذكر نُتَف قصيرة منـهُ ترغيبًا للقرَّاء في مطالعة الكتاب. قال في المدراش التاسع عشر عن ميلاد المسيح:

بميلادك ايها المسيح قد نشرتَ الخلائق الميتة (بالخطيئة) اذ برزت من احشاء (مريم) الجسديَّة واظهرت نفسك (للعالم) وقد برزت اوَّلًا من حضن الآب بميلادك الازليّ فاخزيتَ العالم (البشري) واني لمتذلل لكليهما حيث انَّ بك حيي الضالّون وبك أخزي المتطرّفون بالبعث

ثمَّ أتسع في وصف المولود الى ان قال:

انتَ المرآة الوضيئة التي وُضعت بازاء اعين الشعوب فالشعوب لما نالت عيونًا خفيَّة ومنهـا اقتربت فعاينت قبح سلوكها وقرَّعت نفسهـا. لا بل استانت جذه المرآة فرحضت آثامها واظهرت للعيون محاسنها. طوبى لمن يحمّر عيونهُ ببهائكِ (ايتها المرآة) ويصوّر مثالكِ في نفسهِ..

انتَ السنبلة البهيَّة التي زكت بين الزوان المسقوت واشيعت الجياع دون عناء بخبز الحياة. هي هي التي حلّت اللعنة التي حُلَّ بها آدم ذاك الذي بسرقة اكل خبز الاوجاع والاشواك. طوبى لمن يذوق الخبز الربَّاني المبارك ويزيل عن نفسهِ اللعنة

ومن اقوالهِ في بطرس الرسول في المدراش الخامس عشر:

طوباك يا سمعان بطرس فانك تملك بيديك المفاتيح التي اصطفاها الروح القدس. ما اعظم وما اشرف الكلمة التي منحتك السلطة لتربط وتحلّ من فوق وفي اسفل. وطوبى للرعيَّة التي سلّمها لك الرب. فانَّ خرافك قد نمت نموًّا عجيبًا منذ نصبتَ الصليب في المياه (اشارة الى وضع الصليب

في جرن المعمودية) . . . انك قد جُعلت كراس لجسم اخوتك وكان لهم . . . لما رأى ابنا زيدى عرش بطرس طلبا من سيدهما ان تعطى لهما عروش مثله لكنَّ هذا الوحي لم يُوحَ به الاب الّا لبطرس الذي هو الصخرة التي المتزعزعة

فنختم هذه الامثلة بتكرار الشكر لهمّة غبطة السيد البطريرك الذي اظهر هذا التأليف الى حيّز الوجود بعد ان كان معرَّضاً للدثار ثمّ نحضُّ الراغبين في مطالعة الآثار القديمة ان يقبلوا عليه ويلتقطوا منهُ اسنى الفوائد

التجارة في القرن التاسع عشر

نظر في تقلُّباتها ونواميسها الجديدة للاب هنري لامنس اليسوعيّ

انَّ الاختراعات العجيبة التي دوَّنها تاريخ العلوم والتي بها تمهَّدت الطريق لما هو اعظم شأناً وارفع قدراً ليست بالفضل الوحيد العائد على القرن المتحرم . فانَّ لهُ ايضاً اليد الطولى في تقدُّم التجارة فحوَّر النواميس التي كانت جاريةً عليها من ذي قبل . وقصدنا في هذه النبذة ان نوقف قرَّاءنا الكرام على اهمّ تلك التحويرات

واوَّل ما تأثَّرت بهِ التجارة فزاد رواجها انتشار الادوات الميكانيكيَّة في عالم الشغل فان بها توفَّرت الارزاق وامتدَّت الثروة العموميَّة . وبسببها خفَّ شغل العملة الماديّ حتى صار عملهم ارقى واعقل . ومن جرَّائها خصوصاً تسهَّلت واتَّسعت المعاملات بين الشعوب كما انَّها قرَّبت الوسائل لترقيات أُخرى عتيدة

وكانت حالة التجارة حتَّى اوائل القرن التاسع عشر اشبه بحالة الامم فانَّها كانت منزويةً معتزلةً في قطر دون آخر . وكانت كلّ دولة متشبّثة بناموس حماية تجارتها تبالغ في صيانتها من مزاحمة جاراتها فتنشئ الحواجز المنيعة حول تخومها من دواوين وحرس كما يفعل اهل الارزاق بوضع الاسيجة المشوكة حول املاكهم . ثمّ رأت بعد ذلك انَّ في فعلها لَشطَطاً اذ تبعد عنها مرافق البلاد وتترك الوطن في عزلة سيئة بينما التجارة تطلب التقرُّب والموالات بين الشعوب

بيد انَّ شغل الادوات كان يزداد يوماً بعد يوم حتى ان محصولات بعض البلاد كانكلترة مثلاً أربت بعد حين على مقطوعيَّاتها وهذا ما دفع الدول الى عقد معاهدات تجاريَّة بنوها